

شخصيات وأفكار



الخدّيو إسماعيل

بين تأسيس النهضة الحديثة وتمكين الاستعمار الأوروبي

(الخدّيو إسماعيل) جسر بين مشروعين للنهضة، مشروع محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٨م). والمشروع الناصري (١٩٥٢ - ١٩٧٠م). ومن ثم، فهو ليس مجرد حدث تطويه كتب التاريخ، بل (فصل في دراما تاريخية ما زالت بعد تجري أحداثها).

ومن هنا، يتحتم علينا دراسة تلك الفترة لجلاء الحقيقة من ركام الأحداث والوقائع، فالأمم الحية تقيم تجاربها، وتفصل ما بين الزائف بين والحقيقي لتصحح مسار تاريخها، ويستقيم مجرى الحوادث.

بطاقة حياة

هو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، ثاني أنجال إبراهيم باشا، ولد في قصر المسافرين خانة بالقاهرة في اليوم الأخير من عام ١٨٣٠م. تعلم مبادئ العلوم، واللغات التركية والفارسية، والقليل من الرياضيات والعلوم، وعندما بلغ أرسله أبوه إلى فيينا عاصمة النمسا ليعالج من مرض أصابه ولتكتمل تربيته وقضى بها عامين، وانتظم بعد ذلك في سلك البعثة الخامسة التي عرفت (بعثة الأنجال)، والتي ضمت بين أفرادها عدداً من أبناء الأسرة العلوية، وفي باريس نال حظاً من العلوم الهندسية، وأتقن اللغة الفرنسية كاملة، مما كان له عظيم الأثر في جعله شديد الميل إلى الغرب، يبغي جعل مصر جزءاً من أوروبا وعاد في عهد ولاية أبيه إبراهيم باشا التي لم تستمر طويلاً (١٨٤٧ - ١٨٤٨م)، وخلفه في الحكم عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤م)، والذي كان يكن كراهية لعمه وجده، وما لبثت أن خرجت إلى العلن بعد وفاتهما.



إعداد:
أحمد حسن علي



لابد من العودة إلى بدايات عهد الخديو سعيد، وإدراكه معاناة الريف المصري، نتيجة احتكار الدولة للملكية العقارية للأراضي الزراعية.

فسن قانونه المشهور (باللائحة السعيدية) في ٥ من أغسطس ١٨٥٨م، واضعاً أساس التشريع الخاص بملكية الأراضي الزراعية، وألغى نظام احتكار الحاصلات الزراعية وصار للفلاح حرية التصرف في حاصلاته، وحرية اختيار أنواع الزراعة التي يبتغيها، وخفف عن الأهالي عبء الضرائب، وقد ألغى أيضاً ضريبة الدخولية التي كانت تجبى على الحاصلات والمتاجر مما تتبادلته المدن والقرى في داخل البلاد.

وقد أدخل الخديو إسماعيل تعديلاً مهماً سنة ١٨٦٥م على اللائحة السعيدية بهدف مواكبة التطورات التي طرأت على الاقتصاد المصري بعد سقوط نظام الاحتكار وبداية الحرية الاقتصادية في عهد الخديو سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م)، حيث أضاف هذا التعديل بعض الأحكام التي نظمت كيفية التصرف في أطيان المنسحبين من أرضهم الزراعية، وطريقة تصرف الفلاح في أرضه نتيجة استدعائه للخدمة العسكرية، وأصدر كذلك لائحة (المقابلة)، حيث تعهدت الحكومة لكل من يدفع (المقابلة)، أي ستة أمثال الضريبة المقررة على الأرض سنوياً مرة واحدة بأن يعفى من نصف الضريبة إلى الأبد، ولا تزداد ضريبة أطيان مستقبلاً، ويتقرر له بمقتضاها حق الهبة والتوريث، وإسقاط المنفعة، أي التنازل، وتتابع بعد ذلك القوانين التي أدت إلى استقرار الملكية الفردية للأرض الزراعية.

وبدأت تطبيق سياسات الإصلاح الجديدة في

وأحس إسماعيل بلفح الخصومة وما قد يصيبه من نيرانها إذا ظل بجوار عباس، فارتحل كارهاً هو وبعض أمراء الأسرة إلى الآستانة، وعينه السلطان عبد المجيد عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية، وأنعم عليه برتبة الباشوية، ولم يعد إلى مصر إلا بعد انقشاع غيوم عصر عباس الأول بموته، وتصيب سعيد باشا حاكماً على مصر (١٨٥٤ - ١٨٦٣م)، وبرزت مواهب إسماعيل باشا، وأخذت تعبر عن نفسها في طريقة أدائه للمهام التي أوكلت إليه مثل رئاسته (مجلس الأحكام) أكبر هيئة قضائية في مصر، وإرساله إلى بعض المهام الخارجية في السودان، لإخماد فتنة بعض القبائل، وعبوره تلك الأزمات بسلام بدون إسالة دماء.

وقد استخلفه سعيد باشا مرتين عند زيارته إلى سوريا ١٨٥٩م، والمدينة المنورة ١٨٦١م، ولما أدركت (سعيد باشا) الوفاة، خلفه على عرش مصر في ١٨ من يناير ١٨٦٣م، الأقرب إليه فكراً وممارسة، وبدأ فصل جديد في تاريخ مصر، وكان الخديو إسماعيل في الثالثة والثلاثين من عمره حين تولى أمر مصر، وكانت أمامه مشكلات بالغة التعقيد، تحتاج إلى خبرة سياسية وقدرة حربية وعقلية غير عادية، لكي تستعيد مصر دورها من جديد بعد هزيمة ١٨٤٠م.

ومن هنا، عمل الخديو إسماعيل من أول يوم في حكمه، والذي بلغ - ستة عشر عاماً - في ميادين مختلفة، أهمها الميدان السياسي والميدان الحربي، والميدان العمراني أو الحضاري.

النهضة الزراعية

كي يظل سياق الأحداث ماثلاً في الذاكرة،



كان الخديو إسماعيل امتداداً متطوراً لمحمد علي في إصلاحاته الداخلية وتوسعاته الخارجية، لكنه أوقع مصر في دوامة الديون التي أوصلتها إلى الاحتلال الإنجليزي



الخيرية، ولم يكتف بهذا، بل استقدم من أوروبا عدداً كبيراً من ماكينات الري البخارية لتحل محل معظم آلات الرفع البدائية.

ونجحت سياسة الخديو إسماعيل الزراعية، فازدادت مساحة الأراضي الزراعية أفقياً باستصلاح الأراضي، يقدر البعض الزيادة بمليون فدان، فقد كانت الأرض المنزرعة في أواخر عهد الخديو سعيد حوالي ١٦٩,١٦٠,٤ فداناً في سنة ١٨٥٢م، ثم إلى ٥,٤٢٥,٠٠٠ فدان في سنة ١٩٧٩م، وبعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ - سنة ١٨٨٢م - احتل الإنجليز مصر، وعندما غادروها سنة ١٩٥٦م كانت مساحة الأرض المنزرعة فيها عند الرقم نفسه الذي بلغته سنة ١٨٧٩م عند خلع الخديو إسماعيل ١١٩ ولا ندري مساحة الأرض المنزرعة في مصر بعد ستة عقود من انقلاب يوليو ١٩٥٢م ١٩

كما زادت إنتاجية الفدان، أي الزيادة الرأسية، وعني بالتوسع في زراعة القطن بعد ارتفاع أسعاره أثناء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥م)، وأمدت الحكومة المزارعين بالبذور التي يحتاجونها، وازداد الناتج من القطن

الريف المصري، مستهدفة تحقيق زيادة في إنتاجية الأراضي الزراعية، واستصلاح الأراضي القابلة للزراعة، مرتكزة على توفير مياه الري وضبط إيقاع النهر في بر مصر جميعه، فشق ١١٢ ترعة، أهمها الترعة الإبراهيمية والإسماعيلية، حيث بلغ طول الأول حوالي ٢٦٧ كيلو متراً، وأقيمت عليها عدة قناطر هي: قناطر التقسيم بدبروط، وقناطر المنيا، ومطاي ومغاغة، وبيا، وبفضل هذه الترعة التي تأخذ مياهها من النيل عند أسيوط، وتنتهي عند أشمنت ببني سويف وانتعشت الزراعة في مديريات أسيوط والمنيا وبني سويف، وتحول الري فيها من ري الحياض إلى نظام الري الصيفي، واتسعت فيها زراعة قصب السكر والقطن، وتمت الصناعات المتصلة بهذه المحاصيل.

أما ترعة الإسماعيلية، فطولها حوالي ١٢٩ كيلو متراً، وشقت بداية من النيل بجوار شبرا، ووصلت إلى قناة السويس عند الإسماعيلية، وتفرغت إلى فرعين أحدهما إلى السويس، والآخر إلى بورسعيد، وبفضلها أيضاً انتعشت الزراعة بمديرتي القليوبية والشرقية وبعض أعمال السويس.

وبالإضافة إلى إصلاح الرياح المنوفي الذي أنشئ في عهد سعيد، والذي صار أهم مصدر للري في مديرتي المنوفية والغربية، وإصلاح العديد من الترع الأخرى بالدقهلية والقليوبية والشرقية.

ومن ناحية أخرى، أنشئ حوالي (٤٤٦) قنطرة منها (١٥٠) قنطرة في الوجه القبلي، و(٢٧٦) في الوجه البحري، وأصلح بعض عيون القناطر

ومديرية خط الاستواء كسن الفيل وريش النعام، وكانت مصر تستورد من الخارج: المنسوجات والملبوسات، والأثواب الحريرية، والسجاد، والأخشاب وأدوات البناء، والنحاس والآلات، والمجوهرات والعقاقير والدخان والمشروبات الروحية، وأصناف العطارة والزجاج والورق.

النهضة الصناعية

ولقد ارتبطت النهضة الزراعية، بنمو قطاع الصناعة، فاستحدثت صناعة السكر لإدراكه مخاطر الاعتماد على محصول واحد، وهو (القطن)، وظهرت معامل تكرير السكر في مصر الوسطى من بني سويف إلى أسيوط، وكانت تستغل محصولاً قدره ٢٥٧,٠٠٠ فدان بمعاصرهما، أما معامل سكر الصعيد، فكانت تمتد ما بين أرمنت والضبعة والمطاعة، وتستغل ٤٠,٠٠٠ فدان، وتطورت صناعة النسيج، وزادت مصانعه، وأقيم مئة مصنع لنسيج القطن والتيل في القاهرة والإسكندرية، وعشرون لنسيج الصوف، و٤٢ لعمل الأبسطة، كما أقيم في دمياط مئة وستة وستون مصنعاً لنسيج الحرير واثان وستون لصناعته.

وأعاد أيضاً ما أغلق من مصانع جده محمد علي، والتي فككت وبيعت معداتها خرده في عهد الخديو عباس، وأحيا الصناعات التي ازدهرت في عهد محمد علي، مسابك المعدات، ومعامل البنادق، وماكينات تصليح البنادق ومصانع الخرطوش في بولاق والإسكندرية، ومصانع البواخر والسفن البحرية، حيث أنشئ (٨٥) مسبكاً حديدياً، و(٧٣) مسبكاً للنحاس، (٨٠) للتبييض، (٢٤٠) للصباغة، وأنشئت بالإسكندرية

زيادة كبيرة، كان محصول القطن سنة ١٨٦٠م لايزيد عن نصف مليون قنطار، وبلغ ٧٢١,٠٥٢ عام ١٨٦٢م، وبلغ ١,١٨١,٨٨٨ عام ١٨٦٣م، وبلغ ١,٧١٨,٧٩١ عام ١٨٦٤م، وبلغ ٢,٠٠١,١٦٩ مليون قنطار عام ١٨٦٥م.

ثم وصل إلى الرقم نفسه (مليون قنطار) سنة ١٨٧٠م، أي حتى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية وعودة قطن الجنوب الأمريكي إلى أسواقه، بل وقفز هذا الصادرات المصري من القطن إلى ثلاثة ملايين قنطار سنة ١٨٧٦م، كما أكثر من زراعة قصب السكر بعد أن ظهرت عقابيل نهاية الحرب الأهلية الأمريكية على أسعار القطن المصري.

إصلاح التجارة

ونتيجة للشراء الفاحش الذي حققته طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية من ارتفاع الأسعار الفلكية للقطن المصري، دخلت بفائض رؤوس أموالها إلى ميدان التجارة، بعد الإجهاد على احتكار الدولة لهذا المجال بتصفية الجمارك الداخلية وإعطاء حرية تامة للتجارة، فشاركت التجار الأجانب الذين وفدوا على مصر في عهد الخديو سعيد في حركة تجارية نشطة زادت وارداتها في المدة من (١٨٦٣ - ١٨٧٥م) من ١,٩٩١,٠٠٠ جنيه إلى ٥,٤١٠,٠٠٠ جنيه، كما زادت صادراتها في المدة نفسها من ٤,٤٥٤,٠٠٠ إلى ١٣,٨١٠,٠٠٠ جنيه، فاشتملت صادرات مصر في عهد إسماعيل، بالإضافة إلى القطن والسكر على محاصيل الأرز، والقمح، والفلو، والذرة، والشعير والعدس، والبقول، والصوف، والكتان، كما اشتملت على واردات السودان



حاول الخديو إسماعيل جعل قناة السويس لمصر ولخير مصر، بينما سعت القوى العالمية إلى تسخير أرض مصر وعمالها لمصلحة

القناة



أسلاكها ١١,٩٥١ كم.

وبلغ عدد مكاتب التلغراف في مصر
والسودان سنة ١٨٧٨م: (١٥١) مكتباً، منها (٨٦)
مكتباً بالوجه البحري، و(٤٤) مكتباً بالوجه
القبلي، و(٢١) مكتباً بالسودان.

وقام الخديو إسماعيل بشراء مصلحة البريد
من السنيور موتس الإيطالي، وصارت إدارة
مصرية من يناير ١٨٦٥م، وبلغ عدد المراسلات
البريدية (٢,٥٠٠,٠٠٠) معظمها مراسلات
تجارية، وبلغ عدد مكاتب البريد ٢١٠ مكتب في
القاهرة والإسكندرية والأقاليم، وأعاد الاهتمام
بالموانئ المصرية، حيث قام بإصلاحها وتوسيعها،
كميناء السويس، وتوسيع ميناء الإسكندرية،
وأنشأ المنارات الجديدة على سواحل البحر
الأبيض المتوسط والأحمر.

إصلاح التعليم

عندما بدأت توابع زلزال معاهدة لندن سنة
١٨٤٠م، تم تقليص الكثير من أنشطة الدولة،
وكان للتعليم النصيب الأكبر، فأغلق الكثير من
المدارس، وأصيب التعليم المصري بنكسة خطيرة
(أصاب الضمور والذبول والتحلل مؤسسات
البلاد الفكرية والثقافية والتربوية)، وبتولي
الخديو إسماعيل دفة الأمور، أعاد إنشاء (ديوان

(٦) مسابك للحديد، (٤٣) ورشة حدادة، و(٣٠)
مسبكاً للنحاس، و(٩٣) للذهب، كما تطورت
صناعة الفخار، وأنشئت في عهده كذلك حوالي
١٠ مصانع للزجاج، وفي الوقت نفسه تطورت
صناعة الطوب.

وتجدد العمل في مناجم الزمرد والرصاص
والذهب والفيروز، واستخراج النترات والأملاح
من البحيرات، وفي الوقت نفسه اكتشف زيت
البترول جنوب السويس، وأحضر الخديو
إسماعيل الماكينات لاستخراجه واستغلاله،
وأنشأت الدائرة السنية (دائرة إسماعيل) مصانع
للورق ببولاق سنة ١٨٧٠م، وطور أيضاً المطبعة
الأميرية التي أنشئت في عهد محمد علي،
ووصل عدد المشتغلين في الحرف والصنائع إلى
أكثر من مئة ألف حرفي وصانع انتظموا في ٢٨
حرفة وصناعة، مما يشهد على تطور مصر
الصناعي المذهل في تلك الفترة.

طفرة شبكة المواصلات

وتمشياً مع تلك الوثبة الحضارية في مجالي
الزراعة والصناعة، حدث التطور الأكبر في
شبكة المواصلات في البر المصري جميعه، فقد
أنشئ منها قبل ولايته الحكم (٢٤٥) ميلاً، فأنشأ
هو نحو ١٠٨٥ ميلاً، وبحسب إحصاء بعثة كيف
الإنجليزية، كما روى الراجعي: "بلغ طول السكك
الحديدية التي أنشأها إسماعيل ١٢٠٠ ميل،
وقددرت البعثة نفقات إنشائها بمبلغ
١٣,٢٠٠,٠٠٠ مليون جنيه، بواقع الميل ١١,٠٠٠
جنيه".

وبلغ طول الخطوط التلغرافية سنة ١٨٧٢م
في مصر والسودان (٥٥٨٢) كيلو متراً، وطول

المدارس) وعين رفاعة الطهطاوي (قومسيون) ذلك الديوان "للنظر فيما يجب نحو افتتاح المدارس الجديدة".

"وإن ميزانية التعليم زادت من ٦٠,٠٠٠ جنيه في عهد سعيد إلى ٨٠,٠٠٠ جنيه في عهد إسماعيل، ثم أضيف إلى هذا المبلغ دخل الأرض الذي اشتراها إسماعيل من شركة قناة السويس". ففي قاعدة البناء التعليمي ظهرت مكاتب القرى، وقد بلغ عددها طبقاً لآخر إحصاء عام ١٨٧٨م، (٥,٣٧٠) مكتباً، ولما كان عدد السكان ٥,٥١٠,٢٨٣ نسمة، فيكون لكل ١,٠٢٨ نسمة مكتب واحد، وبلغ عدد التلاميذ (١٣٧,٥٥٣) تلميذاً، فيكون متوسط عدد تلاميذ كل مكتب (٢٥) تلميذاً، أو تلميذ واحد بين كل (٤٠) نسمة. وإن عدد المدارس الأولية - وتشبه الإعدادية الآن - قد كان في سنة ١٨٦٣م (١٨٥) مدرسة بلغت في سنة ١٨٧٥م (٤,٦٨٥) مدرسة يتعلم فيها ١١١,٨٠٢ أطفال.

وفي سنة ١٨٧٣م، أسست مدرسة السيوفية للبنات، وكان بها حين افتتاحها نحو مئتي تلميذة، وبلغ عددهن سنة ١٨٧٤م أربع مئة تلميذة، يتعلمن مجاناً، وأسست مدرسة أخرى بالقاهرة سنة ١٨٧٤م، وألغيت سنة ١٨٧٨م، وأسس عدة مدارس عالية، مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٦٦م، ومدرسة الحقوق سنة ١٨٦٨م، وقد حلت محل مدرسة الألسن التي أقفلت في عهد عباس الأول - ومدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢م - ومدرسة الطب والولادة.

وأسس العديد من المدارس الصناعية - ومدرسة الفنون والصنائع سنة ١٨٦٨م -

والتلغراف سنة ١٨٦٨م، وألغيت سنة ١٨٦٩م، ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع - وفرقة النقاشين ١٨٦٩م، وألغيت سنة ١٨٧١م - وفرقة عمليات المرور ١٨٧٠م، وألغيت سنة ١٨٧٢م.

وأنشأ من المدارس الخصوصية: المساحة والمحاسبة - اللسان المصري القديم - فرقة الرسم بالمدارس الملكية - الزراعة - العميان والخرس.

وأنشأ من المدارس الثانوية: المدرسة التجهيزية بالعباسية سنة ١٨٦٣م - مدرسة رأس التين ١٨٦٣م.

وأعاد الخديو إسماعيل عهد البعثات التي ازدهرت في عصر محمد علي، وأوفد الطلبة إلى المدارس الأوروبية، وبلغ عددهم مدة حكمة (١٧٢) طالباً، وقد ازدان عصر إسماعيل بالجمعيات العلمية - المجمع العلمي - جمعية المعارف سنة ١٨٦٨م - الجمعية الجغرافية الخديوية سنة ١٨٧٥م - الجمعية الخيرية الإسلامية ١٨٧٨م، وأنشئت (دار الكتب)؛ لتضاهي كتب خزانة باريس، كما يقول منشؤها علي مبارك، وأنشئ مدرج للمحاضرات العامة عرف (الانفتياتر)، ثم انتشار الصحافة ورسوخ أقدامها في مصر، فبعد الوقائع الرسمية التي صدرت عام ١٨٢٨م، بدأت الصحف تتوالى في عهد إسماعيل، فصدرت أول صحيفة سياسية غير حكومية، وهي وادي النيل (١٨٦٧م)، وقد بلغ عدد الصحف السياسية في آخر عصر إسماعيل (١٢) جريدة، كذلك عرفت مصر الصحف المتخصصة، فصدرت مجلات طبية وعسكرية وثقافية، ولعبت (روضة المدارس المصرية) أول دورية ثقافية مصرية دوراً هاماً



إسماعيل أول من أسرع في إقامة تماثيل للعظماء في الميادين العامة، تخليداً لذكراهم كتمثال محمد علي وإبراهيم باشا



فيها نظام الإنارة بغاز الاستصباح، وهو أول من
شرع في إقامة تماثيل العظماء في الميادين
العامة تخليداً لذكراهم، كتمثال محمد علي،
وإبراهيم باشا عام ١٨٧٣م.

أما الإسكندرية، فقد نالها يد العمران في
عهد إبراهيم وعباس، ثم في عهد سعيد، وازداد
عمرانها في عهد إسماعيل، فاخطت فيها شوارع
وأحياء جديدة، كشوارع إبراهيم، وشوارع الجمرك،
والمحمودية، وفتح ستة شوارع أخرى ممتدة بين
سكة باب شرق والطريق الحربي الذي كان يحيط
بالمدينة، وأنيرت أحيائها بغاز الاستصباح،
وأنشأت بلديتها للاعتناء بأعمال النظافة
والصحة والصيانة فيها.

وعمرت جهة الرمل واتصلت بالمدينة بخط
حديدي، وأنشأ بها الخديوي عدة قصور له
ولذويه للإقامة في الصيف، وإليه يرجع الفضل
في جعلها مصيف القطر المصري.

وأنشأ حديقة النزهة على ترعة المحمودية،
وجعلها متنزهاً عاماً، وبنى سراي الحقانية التي
أنشئت بها المحاكم المختلطة.

ولقد آتت إصلاحات إسماعيل في
الإسكندرية ثمرتها، وأصبحت أربعة أضعاف ما

في نشر الأفكار التنويرية (١٨٧٠ - ١٨٧٨م).

الميدان المعماري الحضاري

وأما في الميدان الإنشائي والحضاري، فقد
قام الخديو إسماعيل بكثير من الأعمال التي
تستحق الإجلال، وليسمح لنا شيخ المؤرخين
(الرافعي) أن نفتتح من كتابه (عصر إسماعيل)
لرصد تلك الإنجازات في القطر المصري، ففي
القاهرة: أزال الأتربة التي كانت تحيط بها،
وخطط لشوارع وميادين جديدة كشوارع الفجالة
الجديد، وكلوت بك، ومحمد علي، وشوارع
عبد العزيز، وعابدين، وأنشأ أحياء جديدة
بأكملها، كحي الإسماعيلية، وكانت جهاته من قبل
أراضي خربة تحتوي على كثبان من الأتربة وبرك
للمياه، وحي التوفيقية، وعابدين، وميدان الأوبرا،
ونظم جهات الجزيرة، والجزيرة، بعد أن أنشأ بها
قصوره العظيمة، وأنشأ حدائق الحيوان
والأورمان والجزيرة، فأصبحت - كما يقول
العلامة علي مبارك -: "من أبهج أخطاط القاهرة
وأعمرها، وسكنها الأمراء والأعيان".

وبنى المسرح الكوميدي ومسرح الأوبرا، ونسق
حديقة الأزبكية تنسيقاً جميلاً، وأنشأ كوبري
قصر النيل ليصل الجزيرة بمصر، وتكلف
١٠٨,٠٠٠ جنيه، والكوبري المسمى الكوبري
الإنجليزي (كوبري الجلاء الآن) لوصل الجزيرة
بالجزيرة، وتم إنشاؤه عام ١٨٧٢م وتكلف ٤٠ ألف
جنيه.

وأنشأ الطريق المعبد بين القاهرة والأهرام،
وكان إنشاؤه سنة ١٨٦٩م بمناسبة حفلات افتتاح
قناة السويس، ومد أنابيب المياه العذبة، وعني
بتعميم الكنس والرش في شوارع القاهرة، وأدخل

ورغم تلك العقبات، صمم على تجاوزها لإنهاء العمل بالقناة، وافتتحت للملاحة العالمية في نوفمبر ١٨٦٩م، وأقام الاحتفالات الباذخة بهذه المناسبة.

وهكذا تظل القناة مشكلة مؤرقة لحاكم مصر، يحاول أن يجعل القناة لمصر، وتحاول القوى العالمية جعل مصر للقناة. إن القوى العالمية تعتبر أن شريط الماء في القناة امتداد من أرض الغرب، وتعتبره قضية مصيرية. لقد كان محمد علي محقاً في تخوفه من حفر القناة، وما سوف تجره على مصر من ويلات وحروب تدفع ثمنها أجيال قادمة، أي رجل بصير كان محمد علي؟

إصلاحات الجيش والأسطول،

وفتوحات الخديو إسماعيل العسكرية؛

ها هو الخديو إسماعيل ينفذ الفبار عن مشاريع محمد علي العسكرية، ويضعها موضع التنفيذ، ويعطيها دفعة جديدة، بعد ضربة الإجهاد التي تعرض لها سنة ١٨٤٠م، والزمته بالانزواء هو وخلفاؤه داخل مصر وعدم تجاوز حدودها.

أولى الجيش والأسطول اهتمامه الأكبر، محاولاً الوصول بهما إلى مصاف الجيوش الأوروبية الحديثة، فنهض بالتعليم الحربي، فأنشأ المدارس الحربية على الطراز الأوروبي مثل: مدرسة البيادة (المشاة) ١٨٦٤م، ومدرسة السواري (الفرسان) ١٨٦٥م، ومدرسة الطوبجية (المدفعية) ١٨٦٥م، ومدرسة أركان الحرب ١٨٦٥م، ومدرسة صف الضباط ١٨٧٤م، وفي الوقت نفسه أرسل إلى فرنسا بعثة حربية ضمت ١٥ ضابطاً بهدف الاستفادة من الخبرة

كانت عليه في عهد سعيد، وزاد عدد سكانها ليصل في أقل من خمسة عشر عاماً إلى حوالي ٢١٢,٠٠٠ نسمة.

ويعد اهتمام الخديو إسماعيل بالصحة مظهرًا من مظاهر نهضته، إذ أصدر أوامره ببناء عدد ليس بالقليل من المستشفيات في القاهرة والإسكندرية، وباقي مديريات القطر المصري، فأنشئت بالقاهرة المستشفى الأميري والمستشفى الأوروبي، وكذلك بالإسكندرية، وأيضاً ظهرت المستشفيات في دنقلة وسواكن، ومصوع وعسلا، وبربرة، والأبيض، وسنار، والخرطوم، ومن ناحية أخرى اهتم بمقاومة الأمراض المتوطنة ومكافحة الأوبئة، وقام بنشر الوعي الصحي بين السكان.

فاتح القناة

وكذلك اهتم بمشروع قناة السويس، فصمم على إكمال ما بدأه سلفه الخديوي سعيد، إلا أنه اعترض على الشروط المجحفة لامتياز القناة، خصوصاً التعهد الذي يلزم الحكومة المصرية بتقديم (٢٠) ألف عامل، وأيضاً ملكية الشركة لترعة المياه العذبة وتقاضيتها أجراً من الأهالي مقابل ري أراضيهم منها، ولها الحق كذلك في نزع ملكية الأراضي من الأفراد إذا رأت أنها في حاجة إليها، ولما عارضت الشركة تعديل تلك الشروط، قبل الخديوي إسماعيل تحكيم نابليون الثالث إمبراطور فرنسا الذي جاء حكمه مماثلًا لشركة قناة السويس، وألزم هذا التحكيم الجائر الحكومة المصرية بدفع مبلغ ٣,٢٦٠,٠٠٠ جنيه مصري كتعويضات مقابل التعديلات في نصوص الامتياز، وهو تعويض يعادل نصف رأسمال الشركة.



نجحت السياسة الزراعية للخديو إسماعيل في زيادة مساحة الأرض الزراعية أفقياً وزيادة إنتاجية الفدان (رأسياً)



التجارية في الأسطول الفرنسي تكون ١٥٪ مقابل ٨٥٪ سفناً شراعية، أما الأسطول المصري فإن أكثر من ٦٠٪ من سفنه كانت تجارية، مقابل أقل من ٤٠٪ سفناً شراعية.

وبعد أن استكمل الخديو إسماعيل بناء الجيش المصري عدة وعتاداً، حتى وصل إلى مصاف الجيوش الأوروبية الحديثة، أخرج من خزائن العسكرية المصرية خرائط حملات جده محمد علي، وإن غير بوصلة مسارها من الاتجاه شرقاً نحو آسيا إلى السير جنوباً صوب السودان ومديرية خط الاستواء وأوغندا.

وإن كان من الإنصاف التاريخي، قبل أن تتقطع أنفاسنا بملاحقة سير حملات الجيش المصري، أن نقول: إن أسرة (محمد علي) (١٨٠٥ - ١٩٥٢م) من البداية إلى النهاية كانت أكثر وعياً بحيوية وأهمية ومصيرية وحدة وادي النيل من المنبع إلى المصب، من كل حكومات انقلاب يوليو ١٩٥٢م، والتي بدأت جريمتها بفصل السودان عن مصر (١٩٥٤م)، وانتهت أخيراً بالتفريط في مصالح مصر الوجودية في منابع وادي النيل.

على أية حال، فلم يكن الخديو إسماعيل سوى امتداد متطور لمحمد علي في إصلاحاته وتوسعاته.

الفرنسية، في حروبها الأوروبية على عهد نابليون بونابرت، وكذلك استعان بالخبرة الأمريكية، حيث عهد إلى عدد من الضباط الأمريكيين بتأسيس هيئة أركان حرب للجيش المصري، واهتم أيضاً بالصحافة الحربية فأنشئت صحيفتان (جريدة أركان حرب الجيش المصري - الجريدة العسكرية المصرية).

وأخرج من المخازن معدات المصانع الحربية التي شيدها محمد علي، فجدها وطورها، بعد أن علاها الصدا، حتى صارت تصنع فيها المدافع والآلات والأدوات الحربية، وأمر كذلك بإحياء ترسانة الإسكندرية الشهيرة، ودبت فيها الحركة والنشاط، بعد خمول وركود طويل، صنعت بها السفن الحربية، كما استجلب من ترسانات أوروبا عدة سفن حربية انضمت إلى الأسطول الحربي المصري، وجدد المدرسة البحرية بالإسكندرية، وأحضر لها المدرسين من أوروبا، بالإضافة إلى بعض المدرسين المصريين ولم يغفل الخديو إسماعيل الأسطول التجاري، فأنشأ شركة للملاحة التجارية هي الشركة العزيزية، وفي مقارنة مذهلة بين الأسطول التجاري المصري، ومثيله في الدول الأوروبية الكبرى في تلك الفترة: كان عدد سكان فرنسا سبعة أضعاف سكان مصر، ولكن الأسطول التجاري الفرنسي لم يزد حجم حمولته على حجم حمولة الأسطول التجاري المصري، إلا بثلاثة أضعاف، بل لقد كان متوسط حمولة الباخرة في الأسطول الفرنسي ٣٥٠ طناً، على حين كان ذلك المتوسط في الأسطول المصري ١٠٠٠ طن! وكانت السفن

إلى محافظتين تابعتين لمصر، وامتد السلطان المصري من سواحل البحر الأحمر إلى سواحل خليج عدن الشمالية، وفي ١١ / ١٠ / ١٨٧٥م رفع العلم المصري على مدينة (هرر) عاصمة سلطنة هرر التي تقع شرقي الحبشة، وغربي زيلع.

وهكذا نجح الجيش المصري الذي وصل تعداده في السودان إلى ٣٠,٠٠٠ مقاتل في تأمين حدود مصر الجنوبية، وتكوين دولة إقليمية عظمى تمتد جنوباً إلى بحيرة ألبرت وفيكتوريا. وشرقاً إلى سواحل البحر الأحمر وخليج عدن والجنوب الشرقي إلى المحيط الهندي، وغرباً إلى مملكة واداي الواقعة غربي دارفور، ويقدر البعض مساحة (السودان المصري) في عهد إسماعيل بأنها كانت تعادل مساحة كل من فرنسا وألمانيا وإسبانيا مجتمعة.

ولكن شاءت التراجيديا التاريخية أن تعيد ما سبق حدوثه مع محمد علي باشا، وأن تنتكس التجربة، ويتم تفكيك الإمبراطورية الأفريقية التي صنعها الخديو إسماعيل، ويهمل الجيش ويتقلص عدده وعتاده، وتصبح مصر جزءاً من الإمبراطورية البريطانية.

مشكلة الديون والتدخل الأجنبي في مصر
في الثلث الأخير من القرن ١٩، دخل النظام الرأسمالي مرحلته العليا والنهائية: (مرحلة الإمبريالية)، وبدأ أن تصدير رؤوس الأموال إلى بلدان المشرف مقدمة لأن ييسط يده عليها مستقبلاً، لعلمه عدم قدرتها على سداد ديونها وفوائدها الباهظة.

وكان من سوء الطالع، للدولة المصرية في عهد الخديو إسماعيل، حالة الإرهاق التي وصلت

كانت حدود السودان في عهد محمد علي قد وصلت شرقاً إلى البحر الأحمر، وضمت إقليم كسلا الواقع شرقي نهر عطيرة، ووصلت من ناحية الحبشة إلى القصارف والقلابات، ودخلت سواكن ومصوع، كما وصلت الحملات إلى جزيرة (جونكر) تجاه (غندكرو) الواقعة على النيل الأبيض.

فلما جاء إسماعيل قامت قواته بضم مديرية فاشودة سنة ١٨٦٥م، وأكدت الوجود المصري في مصرع وسواكن، فأصبحتا ضمن الممتلكات المصرية بعد أن جعلها فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦م من ملحقات مصر.

وفي ٢٦ من مايو ١٨٧١م، رفع صموئيل بيكر العلم المصري على غندكرو، وأطلق عليها الإسماعيلية تيمناً باسم الخديو إسماعيل، وأصبحت عاصمة لمديرية خط الاستواء، وفي إبريل من العام نفسه ١٨٧٢م ضمت مملكة (أونيورو) المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقاً، وضمت عاصمتها (ماسندي)، وفي السنة نفسها أعلن ملك أوغندا ولاءه لمصر.

"ولما حل (غوردون) محل صموئيل بيكر كمدير لمديرية خط الاستواء، قام بتوسيع نطاق الحكم المصري، وامتد نشاط مصر إلى كافة الأصقاع المحيطة ببحيرة (فيكتوريا)، وفي السنة نفسها تم اكتشاف بحيرة (كيوجا) التي عرفت ببحيرة (إبراهيم)، والتي تقع شمالي بحيرة فيكتوريا.

وفي ٢٥ من أكتوبر ١٨٧٤م، ضمت مصر سلطنة دارفور، وفي الأول من يوليو ١٨٧٥م ضمت زيلع وبربرة وبولهار وتاجورة إلى الممتلكات المصرية، وحول الخديو إسماعيل زيلع وملحقاتها

إليها الميزانية؛ بسبب إصلاحات إسماعيل وطموحاته التي لا سقف لها، مما أدى إلى تراكم الديون، وعجزه عن سدادها، وقد حاول أن يسد العجز عن طريق بيع ٤٢٥,٧٢٩ ألف فدان من أملاك الدائرة السنية (أملاكه) إلى الدولة كضمان لديونه لبنك روتشيلد وحده، والتي بلغت ٨,٥ ملايين جنيه إسترليني، وقام بزيادة الضرائب على الأراضي الخراجية، وجعلها نصف المحصول بعد أن كان الثلث أيام سعيد، إلا أن هذا لم يعد يجدي، فلم يعد له ملجأ إلا باب (الاستدانة)، والذي فتح على مصراعيه، فبلغت في أربعة عشر عاماً (١٨٦٤ - ١٨٧٨م) ما قيمته (١٢٦,٣٠٤,٣٦٠) مليون جنيه إنجليزي.

وبدت الفرصة سانحة لالتهام مصر وإخضاعها للهيمنة الإمبريالية، بعد أن ضحى الخديو إسماعيل بأسهم مصر في قناة السويس بمبلغ هزيل قرابة أربعة ملايين جنيه سنة ١٨٧٥م، وبدأت حلقات التدخل الأجنبي في شؤون مصر الداخلية، وخاصة إنجلترا، ببعثة "كيف" البريطانية سنة ١٨٧٢م.

والتي أوفدتها بناء على طلب إسماعيل لدراسة أحوال مصر المادية، ثم في لجنة (صندوق الدين) التي أنشئت في ٢ من مايو ١٨٧٦م إيماناً ببدء الوصاية الأجنبية على شؤون مصر المالية والداخلية، إذ اعتبر صندوق الدين هذا خزانة فرعية للخزانة العامة يتولى أعضاؤها من الأجانب تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية (إيرادات المديرية...) وإرسالها رأساً إلى بنكي إنجلترا وفرنسا.

ومبالغة في كسب ود الدول الأجنبية الدائنة

أصدر إسماعيل أمراً في مايو ١٨٧٦م بإنشاء مجلس أعلى للمالية برئاسة السنيور (شالويبا) أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإيطالي - وعلى الرغم من هذا لم تقتنع إنجلترا وأصرت على إنشاء ما عرف باسم (المراقبة الثنائية) في ١٨ من مايو ١٨٧٦م للهيئة الفعلية على إدارة الحكومة المصرية بتعيين مراقب إنجليزي للإيرادات، وآخر فرنسي للمصروفات، وأصرت المراقبة الثنائية على ضرورة تكوين لجنة أوروبية للتحقيق في شؤون مصر المالية، وأذن الخديوي لأوامرها، وتكونت اللجنة في ٢٧ من يناير ١٨٧٨م، وطلبت من الخديو التنازل عن أملاكه وأطيان عائلته، ولم يقف مسلسل الهوان عند هذا الحد، بل فرض على البلاد قبول وزيرين أجنيين في وزارة نوبار باشا سنة ١٨٧٨م أحدهما إنجليزي، والآخر فرنسي.

وأدى هذا الإذلال المنظم للإرادة المصرية، إلى اندلاع انتفاضة وطنية في إبريل ١٨٧٩م، دعت إلى إكتتاب عام لسداد قسط الديون الذي تعثرت في سدادته (١,٥٠٠,٠٠٠) جنيه إسترليني، وتم تحصيله وسداده على الفور، ودعت أيضاً إلى سداد الديون والوقوف أمام التدخل الأجنبي الذي تجاوز الكثير من الحدود، وفي خطوة أخيرة لجأ الخديو إسماعيل إليها وهو احتماؤه بالشعب بدلاً من أن يواجههم وظهره إلى الحائط، وأقر تلك المطالب، مما أثار ذعر الدول الأوروبية، وقدم قنصلاً بريطانيا وفرنسا إنذاراً إلى إسماعيل بأن يرجع عن تأييد المشروع الوطني، وإلا سيدفع ثمن ذلك عرشه، ورفض الخديو إسماعيل الإنذار، وأصدر مرسوماً بتسوية الديون

- الدولة القومية.. ذات المؤسسات البرلمانية.

- وإدخال قانون نابليون.

ولقد رسخت السنوات الست عشرة من حكم إسماعيل أسس العلمانية في مصر الحديثة، الدكتور لويس عوض: مجلة المصور، ٢٣ / ١ / ١٩٨٢م، نقلاً عن كتاب (نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام)، للدكتور محمد عمارة، ص: ١٤٥ - ١٦٢ .

ومن قائل: "لو خلت شخصية إسماعيل من عيوبها لجعل من مصر ياباناً أخرى، ولصارت على يده دولة من أقوى الدول المستقلة وأعظمها شأنًا".

عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، ج٢، ص: ٣١٢ .

مصادر البحث

- عصر إسماعيل، ج١، ٢، عبد الرحمن الرافعي.

- رفاة الطهطاوي: رائد التنوير في العصر الحديث، د. محمد عمارة.

- المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر: تقديم ومراجعة د. يونان لبيب رزق، الفصل الخامس: الدولة الحديثة في مصر (٢): جمال شقرة.

- التعليم في مصر، د. سعيد إسماعيل علي.

- تاريخ الفكر المصري الحديث: الفكر السياسي والاجتماعي (٢)، د. لويس عوض.

- نهضة مصر: (تكون الفكر والأيدولوجية في نهضة مصر الوطنية): د. أنور عبد الملك.

- النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، د. مسعود ضاهر.

- مجلة أكتوبر: ٨ / ١٩٩٣م.

- أعداد مجلة الطليعة: ١٩٦٩ - ١٩٧١ -

١٩٧٢م. ■

وإزاحة الوزيرين البريطاني والفرنسي من الوزارة، وتشكيل وزارة وطنية برئاسة شريف باشا، ولم تجد الدول الأوروبية بدءاً من اللجوء إلى السلطان العثماني لعزل إسماعيل، ووجدت الطريق ممهداً، فالدولة العثمانية تجد في إسماعيل صورة من جده محمد علي في نزعته الاستقلالية وتطلعاته التي ليس لها حدود، فلم يعد إلا أن يصدر السلطان العثماني أمره بخلع الخديو إسماعيل عن حكم مصر، وتعيين ابنه الأكبر محمد توفيق باشا على مصر، وأجهضت النزعة الاستقلالية لمصر مرتين خلال أربعين عاماً.

وعاش الخديو إسماعيل سنوات المنفى في نابولي بإيطاليا، واستقر به الأمر في الأستانة بقصر يملكه على البوسفور، وبعدما قضى ١٦ عاماً في منفاه، عاد إلى مصر ميتاً في مارس ١٨٩٥م.

قالوا عنه

حول الخديو إسماعيل وتقييم سنوات حكمه، كتبت الدراسات التاريخية الكثيرة، وصدر العديد من الأحكام ما بين الإدانة والإنصاف، فمن قائل: "أراد إسماعيل باشا أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، فتحقق له ما أراد بأن ألحقت مصر بأوروبا، ولكن مستعمرة، جلال كشك، لا خيار في الهوية الحضارية، مجلة أكتوبر، ١٥ / ٨ / ١٩٩٣م، ص: ١٦، ١٧ .

ومن قائل: "ويتولى إسماعيل الذي كان يؤمن بمصر الأوروبية، ويبدأ من جديد إعادة بناء الدولة الحديثة العلمانية في مصر بكل مضامينها..